مصادر الحضارة الإسلامية

المقصود بمصادر الحضارة الإسلامية بأنها المنابع التي يُستقى منها. وتنفرد الحضارة الإسلاميَّة بين الحضارات الإنسانية باستقاء صورها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتتفق مع هذه الحضارات في كثير من المصادر الأخرى المتفق عليها بين المؤرخين كأصول لدراسة الحضارة بشكل عام. وهذه المصادر هي:

(1) مصادر أصلية: وهي الكتاب والسنة، والسيرة النبوية

(2) مصادر تبعية: أرشدت إليها نصوص الكتاب والسنة، كالإجماع والقياس

(3) مصادر المعرفة الإنسانية: اللغة العربية، التاريخ الإسلامي، الخبرات والقيم الإنسانية

(4) مصادر مكتوبة

1- المصادر الأصلية (الشرعية)

أ- القرآن الكريم

- المصدر الأول والأساس لدراسة الحضارة والنظم الإسلاميَّة.
- التنزيل المحكم الذي انتظمت فيه القوانين وقررت فيه القواعد في المجتمع الإسلامي.
- بانتظام القوانين والقواعد شيد المسلمون حضارتهم.
- في إطار الحضارة قامت وتطورت نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

قال تبارك وتعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)

- وجد المسلمون في هذا التنزيل المحكم إحكام إلهي لكل نواحي الحياة الإنسانية، وكل ما يحتاجون إليه في:

- تنظيم دولتهم
- إدارة شؤونها
- بناء مجتمعهم
- تحديد علاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية
- تنظيم نواحي الحياة الإنسانية
- ضبط لسلوك الفرد وسلوك الجماعة في وقت السلم والحرب
- تنظم أصول المعاملات وآدابها
- ضبط الحدود والقصاص
- يظل القرآن الكريم دومًا النبع الأول الذي يستمد منه المسلمون منهجهم في الحياة.

- طبق المسلمون نظريات القرآن الكريم في الحكم والسياسة كما طبقوها فيما يتعلق بالإدارة وتنظيمها.
- وتنفرد الحضارة الإسلاميَّة بين كل الحضارات باستثناء نظمها وتشريعاتها وقوانينها من القرآن الكريم الكتاب السماوي الأوحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي سيظل الماء المنهل العذب الذي تنهل منه الحضارة الإسلاميَّة حيويتها.

قال تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

ب- السنة النبوية المطهرة

- السنة النبوية المطهرة هي الشارحة للقرآن الكريم لتوضح ما يصعب على المسلمين فهمه، ومن ثم كانت السنة هي المصدر الثاني من مصادر الحضارة الإسلاميَّة وما قدمته من نظم.

- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام المسلمين وقاضيهم وقائدهم ومعلمهم ومربيهم، وفوق هذا وذاك كان نبيهم الذي بلغهم رسالة ربه كما أوحي بها إليه.

- توضح دين الإسلام، وتعمق فهم الأصول والأسس التي وضعها الإسلام وجاء بها القرآن الكريم.

- نص القرآن الكريم على ضرورة اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطاعته وذلك بقوله: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)

ومن هنا كانت أهمية السنة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلمين.

- السنة النبوية مصدر أساسي من مصادر الحضارة الإسلاميَّة حيث أقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الدولة الإسلاميَّة في المدينة واضعًا اللبنات الأولى لنظام الحكم والإدارة والاقتصاد والحرب في الإسلام حيث كانت المدينة المركز الأول للحضارة الإسلاميَّة وفيها ولدت وتمت واكتملت. ومنها انتقلت الحضارة الإسلاميَّة مع الفاتحين المسلمين لتصل إلى كل مكان وصلوا إليه.

ج- السيرة النبوية العطرة:

هي قصة حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وحياته هي التطبيق العملي لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فأخلاقه وشمائله وتعامله مع من حوله من أصحابه، وأهل بيته وجيرانه، وتعامله مع أعدائه كلها أمور غاية في الأهمية والخصوصية التي بدورها تكسب الحضارة الإسلامية بعداً آخراً يزيد من تميزها وتفردها عن الحضارات الأخرى.

2- مصادر تبعية

أ- الإجماع

هو اتفاق الفقهاء المجتهدين في عصر على حكم شرعي معين. ولا فرق بين أن يكون هؤلاء المتفقون من فقهاء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام بعد وفاته، أو من الطبقات التي جاءت بعدهم.

الإجماع حجة قوية في إثبات الأحكام الفقهية ومصدر يلي السنة في المرتبة. ودليل اعتباره في هذه المكانة من مصدرية التشريع مجموعة آيات وأحاديث تدل على أن إجماع الكلمة من أهل العلم والرأي حجة.

قال تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

الإجماع في ذاته إذا انعقد على حكم لا بد أن يكون مستنداً إلى دليل فيه، وإن لم ينقل الدليل معه، إذ لا يعقل أن تجتمع كلمة علماء الأمة الموثوق بهم تشهياً بلا دليل شرعي. ولذلك إذا أراد المتأخرون معرفته إنما يبحثون عن وجوده وصحة نقله لا عن دليله إذ لو وجب البحث عن دليله لكانت العبرة للدليل لا للإجماع بينما هو في ذاته حجة.

ب- القياس

هو إلحاق أمر بآخر في الحكم الشرعي لاتحاد بينهما في العلة.

والقياس يأتى في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنة والإجماع من حيث حجيته في إثبات الأحكام الفقهية، ولكنه أعظم أثراً من الإجماع لكثرة ما يرجع إليه من أحكام الفقه.

3- مصادر المعرفة الإنسانية

تتمثل هذه المصادر في:

أ- اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي لغة القرآن والسنة. قال تبارك وتعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). وهي لغة التشريع الإسلامي، والتي بدونها يستحيل فهم النصوص، ومعرفة المراد سواء كانت النصوص من القرآن أو من السنة. فبدونها لا اجتهاد ولا قياس، كما أن اللغة العربية هي لغة العلم عند الأمة العربية والإسلامية، فكل الميراث العلمي والثقافي مصاغ بهذه اللغة، فالأدب والشعر والنثر كتب باللغة العربية.

فاللغة العربية للمصادر الإنسانية والمعرفية بمثابة القلب من الجسد. فبصلاحها تصلح المصادر المكتوبة للحضارة، وبفسادها تفسد.

ب- التاريخ الإسلامي:

يعد التاريخ الإسلامي ميدان واسع ورحب ملئ بالأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمثل معيناً لا ينضب للحضارة الإسلامية؛ لأنه بمثابة السجل لمسار الأمة الإسلامية استقامة وانحرافاً، صواباً وخطأً، ايجابيات وسلبيات.

إن حاضر الحضارة الإسلامية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بماضيها. ولا يمكن سبر غورها إلا بدراسة تاريخها وماضيها؛ وذلك لمعالجة خلل الحاضر، وأخذ الدروس والعبر من الماضي حتى لا يتكرر الخطأ؛ وبالتالي يمكن أن نضع الخطط للمستقبل على ضوء دراسة الحاضر مقروناً بالماضي. ومن هنا تظهر أهمية التاريخ الإسلامي كمصدر من مصادر الحضارة الإسلامية.

ج- الخبرات والقيم الإنسانية:

لم يأت الإسلام ليلغي الآخر بل جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق. فعن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت لأتمم حسن الأخلاق: وفي رواية صالح الأخلاق وفي رواية: مكارم الأخلاق). فالإسلام أقر الأخلاق الصالحة والكريمة مما كان قبله. فالقيم والأخلاق الماضية أقر الإسلام منها الصالح ونبذ منها الطالح؛ وعليه فيمكن أن تكون الخبرات والقيم الإنسانية سابقاً، وحالياً مصدراً من مصادر الحضارة الإسلامية التي حوت قيم، وخبرات علمية من أمم آسيا وأفريقيا وأوروبا... وهي حضارة منفتحة تأخذ وتعطي وتؤثر وتتأثر بما عند الآخرين؛ ولكن بشرط ألا يتعارض الأخذ مع مبادئ وقيم وتوجيهات الإسلام.

4- مصادر مكتوبة

- المصادر المكتوبة كثيرة ومتنوعة منها الكتب المدونة، والمخطوطات والوثائق الرسمية، والرسائل المتبادلة بين الأمراء والولاة والحكام، والاتفاقات والمعاهدات. وتعد المصادر المكتوبة وخاصة الوثائق والمعاهدات من الأصول الأولى لدراسة التاريخ الإداري والاقتصادي للدولة الإسلاميَّة على امتداد أطرافها؛ إلا أن بعض هذه المصادر للأسف الشديد قليلة، ونادرة ضاع بعضها وفُقد خلال الفترات التاريخية المتعاقبة، وتعرَّض بعضها للحرق والإتلاف حين تعرضت بعض دواوين الدولة الإسلاميَّة للحريق.
- وتمثل المصادر المكتوبة فكر وتقدم المسلمين في عصوره المختلفة، فلم يتركوا مجالاً من مجالات العلم إلا طرقوه، وألفوا فيه، وقدموا دراسات وافية أ

5- مصادر أثرية

- تشمل المصادر الأثرية كل ما ترك المسلمون من آثار تتمثل في مساجدهم ومكتباتهم وربطهم ومدنهم وأسوارها وقلاعها وحصونها والعملات على اختلاف أنواعها، والأسلحة بكافة أشكالها ومختلف أنواعها.

وتعد الآثار الإسلاميَّة من المصادر المعينة لدراسة الحضارة الإسلاميَّة. وللمسلمين آثار مبنية ومحمولة زاخرة تنتشر في قارات الدنيا من شبه القارة الهندية شرقًا إلى الأندلس غربًا، وهي شواهد حية على سمو حضارة المسلمين وارتقائها عبر عصورهم المتوالية.

إن القول: بأن الحضارة الإسلامية ليست أصلية، بل هي مقتبسة من حضارات قديمة، وهما حضارتا اليونان والرومان، وأن المسلمين نهلوا من هذه الحضارات ثم بدلوها من صورتها الظاهرة إلى صورة أخرى مركبة بإسلوب جديد، مما جعلها تظهر بشخصيتها المستقلة، هو قول خاطئ، ولا أساس له من الصحة، فالحضارة الإسلامية في ذاتها وجوهرها إسلامية خالصة، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات اختلافاً كبيراً، إنها حضارة قائمة بذاتها، لأنها تنبعث من العقيدة الإسلامية، وتستهدف تحقيق الغاية الإسلامية، ألا وهي إعمار الكون بشريعة الله لنيل رضاه، لا مجرد تحقيق التقدم المادي، ولو كان ذلك على حساب الإنسان والدين كما هو الحال في حضارات أخرى، مع الحرص على التقدم المادي بهوية مستقلة؛ لما فيه من مصلحة الأفراد والمجتمع الإنساني كله.

أمَّا ما استفادته من الحضارات الأخرى فقد كان ميزة تحسب لها لا عليها، إذ تعني تفتح العقل المسلم واستعداده لتقبُّل ما لدى الآخرين، ولكن وضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة، فالتقدم والتطور يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون، ثم تضيف الحضارة الجديدة لتكمل ما بدأته الحضارات الأخرى.